

" العلم "

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة قوله تعالى: ﴿.....وَمَا يَعْزِمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّسُخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّا بِهِ ءَكُلُّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ [سورة آل عمران: ٧] والمعنى ، لا يعلم تفسير المتشابه ومعناه الحقيقي إلا الله ووحده والثابتون المتمكنون من العلم يؤمنون بالمتشابه وأنه من عند الله ، وكل من المتشابه والمحكم حق وصدق لأنه كلام الله وما يتعظ ويتدبر الا أصحاب العقول السليمة المستنيرة .

ويقول صاحب التفسير الكبير: " يكون العلم بالمتشابه حاصلًا عند الله تعالى وعند الراسخين في العلم ، وهذا القول مروى عن " ابن عباس " ومجاهد والربيع وأكثر المتكلمين ، والراسخ في العلم هو الذى عرف ذات الله وصفاته بالدلائل اليقينية القطعية وعرف أن القرآن كلام الله تعالى بالدلائل اليقينية فإذا رأى شيئاً متشابهاً ودل القطعى على أن الظاهر ليس مراد الله تعالى علم حينئذ قطعاً أن مراد الله شيئاً آخر سوى ما دل عليه ظاهره ، وأن مراد ذلك الله حق ، ولا يصيركون ظاهره مردوداً سببه في الطعن في صحة القرآن ، وكل من المحكم والمتشابه من عند ربنا ، وذكر كلمة " عند " لمزيد التأكيد .

" وما يذكر إلا أولوا الأبواب " هو ثناء من الله تعالى على الذين قالوا " ءَأَمَّا بِهِ " ومعناه ، وما يتعظ بما في القرآن إلا ذوا العقول الكاملة فصار هذا اللفظ كالدلالة على أنهم يستعملون عقولهم في فهم القرآن ، فيعملون الذى يطابق ظاهره دلائل العقول فيكون مُحْكَمًا ، وأما الذى يخالف ظاهره دلائل العقول فيكون متشابهاً ثم يعلمون أن لكل كلام من لا يجوز في كلامه التناقض والباطل ، فيعلمون أن ذلك المتشابه لابد أن يكون له معنى صحيح عند الله تعالى ، وهذه الآية دليل على علو شأن المتكلمين الذين يبحثون عن الدلائل العقلية ، ويتوسلون بها إلى معرفة ذات الله ، وصفاته وأفعاله ، ولا يفسرون القرآن إلا بما يطابق دلائل العقول ويوافق اللغة والإعراب والشىء كلما كان أشرف كان ضده أخس ، فكذاك يفسر القرآن متى كان موصوفاً بهذه الصفة ، كانت درجته هذه الدرجة العظمى التى عظم بها الله الثناء عليه ، ومتى تكلم في القرآن من غير أن يكون متبحراً في علم الأصول وفي علم اللغة والنحوكان في غاية البعد عن الله ، ولهذا قال النبى - ﷺ - :

" من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار . "

وقد حس عليهم الكتاب ، فمن ظاهر واضح تنزيله ، ومن غامض شكل تأويله ، فالقسم الأول لبسط الشرع واهتداء أهل الظاهر ، والقسم الثانى لصيانة الأسرار عن اطلاع

الأجانب عليها ، فسبيل العلماء الرسوخ في طليق معناه على ما يوافق الأصول ، فما حصل عليه الموقوف فمقابل بالقبول ، وما امتنع من التأثر فيه بمعلول الفكر سلموه إلى عالم الغيب ، وسبيل أهل الإشارة والفهم إلقاء السمع بحضور القلب فما سنج لفهومهم من لوائح التعريفات بنوا عليه إشارات الكشف وذلك إن طولبوا باستدامة الستر ، وطى السر تخارسوا عن النطق ، وإن أمروا بالإظهار والنشر أطلقوا بيان الحق ونطقوا عن تعريفات الغيبة ، فأما الذين أبدوا بأنوار البصائر فهم مستضيئون بشعاع شمس الفهم ، وأما الذين ألبسوا غطاء الريب ، وخرموا لطائف التحقيق فنقسم بهم الأحوال وتترجم بهم الظنون ويطيحون في أودية الريب والتليب فلا يزدادون إلا جهلاً على جهل ، ونفورا على شك ، ومن وجد علم من الله فيكون ايمانهم بلا احتمال جولان خواطر التجويز ، بل عن صريح الظهور ، وصفاء اليقين وأما أصحاب العقول الصاحبة ففى صحبة التذکر لظهور البراهين ويفهم من ذلك أن المتعرض لتفسير القرآن الكريم أن يكون متحصناً بالعلوم ، والمعارف ، والفتانة ، والتروى والعقل الناضج ولذلك لا يعلم تفسيره الحقيقي ، ومقصودة ، وهدفه ، ومرماه إلا الله - سبحانه وتعالى - والراسخون بالعلم ، وكله من عند الله ، وما يتدبر ذلك إلا أصحاب العقول الواعية ، والفكر السليم والقلوب الطاهرة مع الصفاء والنقاء ، والابتهاج إلى الله - عز وجل - والانقطاع له ، وهذا يحى الفكر والفهم والتوفيق ، والهداية إلى تفسير كتاب الله - عز وجل - ، وفهم دقائقه (١) .

ويكرم القرآن الكريم العلماء ، وطبيعة الإسلام تفرض على الأمة التى تعتنقه أن تكون أمة متعلمة ، ترتفع فيها نسبة المثقفين ، وتهبط أو تنعدم فيها نسبة الجاهلين ، لأن حقائق هذا الدين من أصول وفروع ليست طقوساً تنتقل بالوراثة ، أو تعاويد تضيع بالإيحاء ، وتنتشر بالأبهام ، بل هى حقائق تستخرج من كتاب حكيم ، ومن سنة واعية - صلى الله على صاحبها - وسبيل استخراجها لا يتوقف على القراءة المجردة ، بل لابد من أمة تتوافر فيها العقول الذكية والأساليب العالية ، والآداب الكريمة ، ولا ريب أن مدارس مناهج الإسلام تخلق فى أى أمة تعنى بها جواً من الفقه التشريعى القائم على الاوامر والنواهى ، يعنى الحقوق والواجبات ، وجواً من الآداب الإجتماعية الدقيقة المتعلقة

1- لطائف الاشارات ج ١ ، ص ٢٢٠ وما بعدها .

♦ القرطبي ج ٢ ، ص ١٢٥٨ ، وما بعدها .

♦ مفاتيح الغيب ج ٤ ، ص ٩٧ ، وما بعدها .

♦ تلخيص البيان ج ١٧ .

♦ تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ج ١ ، ص ٣٤٤ ، وما بعدها .

بقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجوا من البحث الصحيح والاجتهاد المخلص لد رواق الإسلام على ما تفديه العصور من أفضية شتى وشئون متجددة فإذا قلّت هذه العناصر في بيئة ما اضمحل أمر الإسلام، ودليل اغصانه، كما تبلى الشجرة، الباسقة المرتفعة فى أرض ذهب خصبها، وجف ماؤها إن العلم للإسلام كالحياة للإنسان، ولن يجد هذا الدين مستقرًا له إلا عند أصحاب المعارف الناضجة، والألباب الحصينة، يقول الله تعالى: ﴿ هَذَا بَلَدٌ لِّتَّاسٍ وَيُنذِرُوا بِهِ ۗ وَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَيَذْكُرُوا الْأَنْبِيَاءَ ﴾ [سورة إبراهيم: ٥٢] ويصور أحاديث أهل جهنم فيقول: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [سورة الملوك: ١٠] ويقول القرآن الكريم فى الذين طمست مشاعرهم، وماتت مواهبهم واستغلقت أذهانهم: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّعَبُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۗ صُمُّوا بِكُمْ عَمَىٰ فَهْمٌ لَا يَقْبِضُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٧١]

لذلك يقول الله - عز وجل -: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة آل عمران: ١٨] وهى شهادة فى معنى الإقرار فالكلى عبيد له و" أولوا العلم " هم الذين عرفوا وحدانيته بالادلة القاطعة .

ولذلك قال - ﷺ - : - " وإذا علمت مثل الشمس ذا شهد " وهذا يدل على أن هذه الدرجة العالية والمرئية الشريفة ليست إلا لعلماء الأصول .
ويقول " سعيد بن جبیر " كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فلما نزلت هذه الآية خررنا سجداً .

ويقول " الكلبي " ، لما ظهر رسول الله - ﷺ - بالمدينة قدم عليه حيران من أخبار أهل الشام، فلما أبصر المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج فى آخر الزمان !.

فلما دخلا على النبي - ﷺ - عرفاه بالصفة والنعت .

فقالا له: أنت محمد؟ قال (نعم).

قالا: وأنت أحمد؟ قال: (نعم) .

قالا: نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك .

فقال لهما رسول الله - ﷺ - : (سلاني) .

فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله .

فأنزل الله تعالى على نبيه - ﷺ - "شهد الله أنه لا إله إلا هو الملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط" فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله - ﷺ - .
وقد قيل: إن المراد بأولى العلم الأنبياء عليهم السلام. وقال ابن كيسان: المهاجرون والأنصار.

وقال "مقاتل": مؤمنوا أهل الكتاب.

وقال "السدي والكلبي": المؤمنون كلهم، وهو الأظهر لأنه عام. وما يؤسده ونفيل إليه، والذي يتناسب مع فهم الآية الكريمة حيث قال الله تعالى: "وَأُولُوا الْعِلْمِ" وهي عامة. وليست خاصة بقوم بأعينهم، إنما المراد العلماء في كل منهم، وفي كل عصر من العصور، وفي كل زمان ومكان وهو الأنسب للفهم، المتزن المستقيم.

وفي هذه الآية دليل على فضل العلم، وشرف العلماء، فلو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه، واسم ملائكته، كما قرن اسم العلماء وقال الله تعالى:

"في شرف العلم لنبيه - ﷺ - ﴿... وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: ١١٤] ولو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه - ﷺ - أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيد من العلم وقال - ﷺ - "إنما العلماء ورثة الأنبياء: العلماء أمناء الله على خلقه".

وهذا شرف عظيم للعلماء. وعن البراء قال: "قال رسول الله - ﷺ -:

"العلماء ورثة الأنبياء يحبهم أهل السماء ويستغفر لهم الحيتان في البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة".

والعلماء على درجات، فمن عالم وصفه فنَاء وربانية، وعالم يعرف احكام حلاله وحرامه، وعالم يعلم أخباره وسنته وآثاره، وعالم يعلم كتابه ويعرف تفسيره وتأويله ومحكمه وتنزيله، وعالم يعلم صفاته ونعوته ويستقوى حجمه وتوجيهه بحديث يخرج به، وعالم لاطاقة حتى أحضره ثم كاشفه فقهره فالاسم باق، والعين مَحْوٌ، والحكم طارق، والعبد محق، قال قائلهم:

بنوح غدوا بالحق صرفاً فنعت الخلق فيم هو مستورُ

ويقول "الزمخشري": شبهت دلالاته على وحدانيته بشهادة الشاهد في البيان والكشف، وشهدت الملائكة وأهل العلم بوحديته بدلائل خلقه وبيد صنعته.

ويقول " ابن كثير " :

" شهد تعالى وكفى به شهيداً وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم وأصدق القائلين { أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } أي المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق وأن الجميع عبيده وخلقه وفقراء إليه وهو الغني عما سواه كما قال تعالى :

﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ... ﴾ [سورة النساء: ١٦٦] ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال " شهد الله أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ " وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام .

إن أول ما نزل من آيات القرآن الكريم قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ۝٦ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْجَلْ ۝٧ فَأَنْزَلَ إِلَى رَبِّكَ الرَّجْعَ ۝٨ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۝٩ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ۝١٠ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ۝١٢ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْهَ لَنْسَفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْهَ لَنْسَفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ۝١٧ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ۝١٨ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٩ كَلَّا لَا تَطَّعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۝٢٠ ﴾ [سورة العلق: ١-١٩]

وهذه اول صيحه تسمو بقدر القلم ، وتنوه بقيمة العلم ، وتعلن الحرب على الأمية الغافلة والجهالة الجهلاء ، وتجعل اللبنة الأولى في بناء كل رجل عظيم أن يقرأ ، وأن يتعلم وسما الله - عز وجل - بدرجات العلماء حتى قرنهم بنفسه وملائكته في الشهادة بوحدايته والإقرار بعдалته ، كما ذكرناه في الآية آفة الذكر "

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ [سورة آل عمران: ١٨]

فأنى لمن يعيش على هامش الحياة بجهله أن يعرف الحق عن خالقه رب الحياة ، أو حتى يلمح طرفاً من صفات الله العظيمة ، وآياته الكبرى .

لذلك أعز الله تعالى العلماء ، وآثرهم بكرامته وفضله ، قال رسول الله - ﷺ - :
" يقول الله - عز وجل - للعلماء يوم القيامة ، إذا قعد على كرسيه للفصل بين العباد :
" إنى لم أجعل علمى ، وحلمى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان فيكم ولا أبألى . " (١) .

إن المعرفة الجيدة أسبق عند الله من العمل المضطرب ، ومن العبادة الجافة المشوبه بالجهل، والقصور، قال رسول الله - ﷺ -: " قليل العلم خير لكم من كثير العبادة " (١) وقال - ﷺ -: " فضل العلم خير من فضل العبادة " (٢) .
وقال - ﷺ -: " أفضل العبادة الفقه " (٣) .
وقال - ﷺ -: " يا أبا ذر لأن تغدوت تعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة ، ولأن تغدوت تعلم بابا من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلى ألف ركعة " (٤) .

ويقول - ﷺ -: " فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد " .
وروى عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : " فضل العالم على العابد سبعون درجة ما بين كل درجتين حضر الفرس السريع المضمّر مائة عام وذلك أن الشيطان يضع البدعة للناس فيبصرها العالم فينهي عنها والعابد مقبل على عبادته لا يتوجه لها ولا يعرفها " (٥) .
وكل علم نافع للإسلام ، وأتمته في شتى الفنون ، ومختلف المعارف سواء أكانت هذه العلوم دينية ، أوكونية ، أو في الطاقة النووية ، أو في التاريخ أو الجغرافيا ، أو في علم النفس ، كل ما يخدم الإسلام ، وبأخذ بيد الأمة إلى الرقى والحضارة والتمدن فهو علم ، ويثاب عليه مبتكره ومخترعه ، فأصل العلوم جميعاً هو القرآن الكريم ، وما عداه أمتان وأعصان ، وفروع ، فكل علم نافع يعد علماً .

وقال - ﷺ -: " إن الله وملائكته وأهل السماوات وأهل الأرض حتى النملة في حجرها ، وحتى الحوت في جوف البحر ليصلون على معلم الناس الخير " (٦) .
وحسبنا أن القرآن الكريم عندما فوه بفضل العلم وجلال العلماء إنما عنى بالعلماء الذين يعرفون عظمة الخالق من عظمة الخلق ، وإنما عنى العلم الذي ينشأ من النظر في النبات والحيوان وشئون الطبيعة الأخرى .
إن علوم الحياة مساويةً لعلوم الآخرة في خدمة الدين ، وتجليه حقائقه .

- 1- رواه الطبراني .
- 2- رواه البزار .
- 3- رواية الطبراني .
- 4- رواه ابن ماجة .
- 5- رواه الديلمي عن ابي هريرة .
- 6- رواية الترمزي .

ويقول الله - عز وجل - فى فضل العلم : ﴿ لَنَكِينِ الرَّسُوحُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُوْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء: ١٦٢]

والمعنى : لكم المتكمنون فى العلم والسابقون فيه مثل " عبد الله بن سلام وجماعته " ، والمؤمنون من المهاجرين والانصار أصحاب النبى - ﷺ - من غير أهل الكتاب يؤمنون بما انزل اليك وما أنزل من قبلك يعنى يؤمنون بالكتب والأنبياء جميعا ، ثم يمتدح الله - عز وجل - مقيموا الصلاة والمعطون زكاة اموالهم ، والمؤمنون بوحداية الله ، وبالبعث بعد الموت هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الجليلة سنعطيهم ثواباً جزيلا على طاعتهم وهوالخلود فى الجنة .

ويقول الله تعالى : ﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ؕ أَوْ لَا تُوْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [سورة الإسراء: ١٠٧]

وهوخطاب للمشركين الذين اقترحوا المعجزات على وجه التهديد والوعيد يعنى آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا فإن ايمانكم به لا يزيده كمالا ، وتكذيبكم له لا يورثه نقصا والعلماء الذين قرأوا الكتب السالفة من صالحى أهل الكتاب إذا سمعوا القرآن تأثروا فخرُوا ساجدين لله رب العالمين .

والمعنى إن لم تؤمنوا به أنتم فقد آمن به من هوخير منكم واعلم ويقول الله - عز وجل - : ﴿ يَتَّابِتْ إِيَّيْ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكُ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٤٣]

وقد كرر النصح باللطف ، ولم يصف اياه بالجهل الشنيع فى عبادته للأصنام وإنما ترفق ، وتلطف به كلامه يعنى جاءت من العلم بالله ومعرفة صفاته القدسية ما لا تعلمه انت فاقبل نصيحتى واطعنى أرشدك إلى طريق مستقيم فيه النجاة من المهالك وهودين الله الذى لا عوج فيه .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة الحج: ٥٤]

والمعنى ، وأهل العلم أن القرآن الكريم هو الحق النازل من عند الله تعالى فيؤمنوا بهذا القرآن فتخشع وتسكن له قلوب بخلاف من فى قلبه مرض وإن الله مرشد المؤمنين إلى الصراط المستقيم ، ومنقذهم من الضلالة والغواية ، وهاديهم إلى طريق الحق ، وهو طريق النجاح فى الدنيا ، والفلاح فى الدار الآخرة وبذلك يكون العالم سعيداً فى دنياه ، فائزاً برضوان الله فى أخراه .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - في فضل العلم والعلماء: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ط
قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة النمل: ٤٢]

والمعنى: أمثل هذا العرش الذي رأيته عرشك؟ ولم يقل أهدا عرشك؟ حتى لا يكون تلقينا لها، فقالت كأنه هو أي شبيه له، ومقارب، ولم تقل "بلقيس":

نعم هو، ولا ليس هو. يقول "ابن كثير": "وهذا غاية في الزكاء والحزم. وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين هذا من قول سيدنا "سليمان" - عليه السلام- وقال ذلك تحدياً بنعمة الله: لقد أوتينا العلم من قبل هذه المرأة بالله، وبقدرته وكنا مسلمين لله من قبلها فنحن أسبق منها علماء وإسلاماً.

ويقول الله - عز وجل -: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٤٩]

والمعنى: ليس الامر كما حسب الظالمون والمبطلون والمرتابون، بل هو آيات واضحة الإعجاز، ساطعة الدلالة على أنها من عند الله محفوظة في صدور العلماء، ومن خصائص القرآن العظيم أن الله حفظه من التبديل والتغيير بطريقتين:

أولاهما: الحفظ في السطور.

ثانيهما: الحفظ في الصدور بخلاف غيره من الكتب فإنها مسطرة لديهم غير محفوظة في صدورهم، ولهذا دخلها التحريف وقد جاء في صفة هذه الأمة "أناجيلهم في صدورهم"

وقال الحسن "أعطيت هذه الأمة الحفظ" وكان من قبلها لا يقرأون كتابهم: لا نقرأ، فإذا أطلقوا لم يحفظ ما فيه الا النبيون، وما يكذب بها إلا المتجاوزون الحد في الكفر والعناد وهم بذلك ظالمون لأنفسهم.

ويقول "القرطبي": "إتيان التابوت، والتابوت كان من شأنه فيما ذكر أنه أنزله الله على آدم عليه السلام، فكان عنده إلى أن وصل إلى يعقوب عليه السلام، فكان في بني إسرائيل يغلبون به من قاتلهم حتى عصوا فغلبوا على التابوت غلبهم عليه العمالقة: جالوت وأصحابه في قول السدى، وسلبوا التابوت منهم. وهذا أدل دليل على أن العصيان سبب الخذلان، وهذا بيّن. قال النحاس: والآية في التابوت على ما روى أنه كان يسمع فيه أنين، فإذا سمعوا ذلك ساروا لحربهم، وإذا هدأ الأنين لم يسيروا ولم يسر التابوت.

وقيل: كانوا يضعونه في مأزق الحرب فلا تزال تغلب حتى عصوا فغلبوا وأخذ منهم التابوت وذل أمرهم، فلما رأوا آية الاصطلام ، وذهاب الذكر، أُنفّ بعضهم وتكلموا في أمرهم حتى اجتمع ملؤهم أن قالوا لنبي الوقت " يعنى الذى كان في زمنهم " .

أبعث لنا ملكا، فلما قال لهم: ملككم طالوت راجعوه فيه كما أخبر الله عنهم، فلما قطعهم بالحجة سألوه البينة على ذلك، فلما سألوا نبينهم البينة على ما قال، دعا ربه فنزل بالقوم الذين أخذوا التابوت داءً بسببه . وهذا هو انتقام الله - سبحانه وتعالى - من العصاة فلا عقوبة إلاّ بذنب ، وكان ما حل بهم جزاءً وفاقا .

وبمضى القرآن الكريم مبيناً فضل العلم والعلماء فيقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَيُرَى الَّذِينَ اتُّوُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سورة سبأ: ٦٠] والمعنى : " ويعلم أولوا العلم من أصحاب النبي - ﷺ - ومن جاء بعدهم من العلماء العالمين الذين يعلمون أن هذا القرآن الذى أنزل عليك يا محمد - ﷺ - هو الحق الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، وهو جبل الله المتين من حكم به عدل ومن قال به صدق ، ومن تمسك به هدى إلى صراط مستقيم . وهو أيضا يرشدنا إلى الحق كما يرشد الذين يتمسكون به إلى طريق الله - سبحانه وتعالى - وهو الطريق الغالب الذى لا يُقهر ، وهو الطريق المحمود ، والله - عز وجل - الحميد المحمود فى ذاته وصفاته وأفعاله .

ويبين الله - عز وجل - فى القرآن الكريم درجة العلماء ، كما يبين أقدارهم عند الله - سبحانه وتعالى - فقال - سبحانه وتعالى - : ﴿.....يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [سورة المجادلة: ١١]

والمعنى : يرفع الله المؤمنين بامتثال أوامره ، وأوامر رسوله - ﷺ - ، والعلماء منهم خاصة أعلى المراتب ، وبمنحهم أعلى الدرجات الرفيعة فى الجنة . يقول الصحابى الجليل "عبد الله بن مسعود" - رضى الله عنه - : "مدح الله العلماء فى هذه الآية، ثم قال : يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم فى العلم فإن الله تعالى يقول : " يرفع الله العالم فوق المؤمن الذى ليس بعالم درجات " .

ويقول الامام الشهيد " سيد قطب " : " والعلم الذى يهذب النفوس ويهذب القلب فيتسع ويطيح ، يؤدىان إلى الرفعة عند الله درجات " (١) .

1- فى ظلال القرآن الكريم ج ٦ ، ص ٣٥١٢ ، بتصريف .

وفي مقابل لرفعة المكان الذي تطوعوا بتركه ورفعوا عنه لاعتبار آراء الرسول - ﷺ - . " والله بما تعملون خبير "

فإنه يجزى عن علم ومعرفة بحقيقة ما تعملون ، وبما وراءه من شعور مكنون . وهكذا يتولى القرآن تربية النفوس وتهذيبها ، وتعليمها السماحة والطاعة ، فالدين تحول في الشعور ، وحساسية في الضمير .

ويقول " القرطبي " : " بين الله - عز وجل - في هذه الآية ان الرفعة عند الله بالعلم والإيمان ولا بالسبق الى صدور المجالس .

وفي الحديث " فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب " وعنه - ﷺ - يشفع يوم القيامة ثلاثة :

" الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء ، فأعظم بمنزلة هي واسطة بين النبوة والشهادة وذلك بشهادة رسول الله - ﷺ - . والله خير بمن يستحق الفضل والثواب ممن لا يستحقه .

ويقول " ابن كثير " - رحمه الله تعالى - : " إن الله تعالى خير بمن يستحق الاحترام والتكريم والتقدير وعلو الشأن والرفعة ، ومن لا يستحق ذلك .

ويروي أن " نافع بن عبد الحارث " - رضى الله عنه - لقي عمر بن الخطاب بعسفان ، وكان عمرا استعمله على مكة ، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادي ؟ قال : استخلفت عليهم ابن أبيزي .

قال : وما ابن أبيزي ؟

فقال : رجل من مواليها .

فقال " عمر بن الخطاب " : استخلفت عليهم مولى ؟ .

فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه قارئ لكتاب الله ، عالم بالفرائض ، قاض . " يعنى هو قارئ للقرآن الكريم ، وعالم بعلم الميراث وهو المعنى بالفرائض ويحسن القصص في الوعظ والإرشاد ، يعنى يريد أن يقول هو من العلماء " .

فقال عمر ، رضى الله عنه : أما إن نبيكم - ﷺ - قد قال : " إن الله يرفع بهذا الكتاب قوماً ويضع به آخرين " . (١) فالعلم نور ، ونور الله لا يهدى للعصاة :

سألت وجيع سوء حفظ فارشدنى إلى ترك المعاصى

1- رواه مسلم من غير وجه وكتاب " العلم " من صحيح البخارى .

وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي
وسئل "الخليل بن احمد الفراهيدي" : أيهما أفضل العلم أم المال ؟ فقال "الخليل
بن احمد الفراهيدي" : العلم أفضل . قيل له فما بالناس ترى العلماء يزدهمون على أبواب
الملوك ولا ترى الملوك يزدهمون على أبواب العلماء ؟
فقال "الخليل بن أحمد الفراهيدي" : لأن العلماء يعرفون حق الملوك والملوك
يجهلون حق العلماء .

ثم أنشد قائلاً :

العلم يحيى قلوب الميتين كما تحيا البلاد إذا ما مسها المطر
والعلم يجلى سواد القلوب كما يجلى سواد الظلمة القمر (١)

فانظر أيها الأخ المسلم ، والأخت المسلمة كيف حث القرآن الكريم على طلب
العلم؟ وما أعدده الله من جزاء في الدار الآخرة للعلماء ، وتكريم في الدنيا بأعلى المراتب
وأشرف المناصب فالعلم سعادة في الدنيا ، وسعادة في الآخرة وشرف وتكريم عند الله
ورسوله وعند الناس وصدق الله تعالى اذ يقول : ﴿... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا
يَعْلَمُونَ...﴾ [سورة الزمر: ٩] ويمضي القرآن الكريم مبيناً كرامة العلماء ، ومقدارهم لدى
خالقهم فيقول - سبحانه وتعالى - ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
غَفُورٌ﴾ [سورة فاطر: ٢٨] والمعنى : إنما يخشاه - سبحانه وتعالى - العلماء ، وما ذلك
إلا لأنهم عرفوه حق المعرفة فعبده ، ووحدوه ، ورضوا به ربا ، وبمحمد - ﷺ - نبيناً
ورسولاً .

يقول "ابن كثير" : "إنما حق خشية العلماء العارفون به ، فكل من عرف الله فهو عالم
فكلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم ، والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر " .
هذه مكانه العلم والعلماء عند الله - سبحانه وتعالى - ولذلك عنى القرآن الكريم
بالأخلاق ، وبين أنه لا يعقلها الا العالمون ، لذلك عندما كان العرب الجهلة يطوفون بالبيت
عراة ، ويحرمون على أنفسهم ما أحله الله من الطيبات ، ومن التجميل بالثياب التي
خلقها الله لهم للنفع والزينة ، والطيبات من المأكول والمشرب بين الله تعالى أنه لا يفقه ذلك
الا من خصهم الله بالعلم ، وكرمهم بالفقه ، وهذبهم بالتعليم .

1- مجافى الأدب في حدائق العرب ، للأب لويس شيخو عوض .

فقال - عز من قائل -: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٣٢].

فهذه الطيبات للمؤمنين ، وإن شاركهم فيها الكافرون في الحياة الدنيا ولكنها ستكون خالصة وخاصة بهم يوم القيامة لا يشاركون فيها أحد .

والسر في ذلك أن الله حرم المحبة على الكافرين فهي خاصة بالمؤمنين فحسب . وكذلك تدين وتوضح الآيات التشريعية لقوم يتدبرون حكمة الله ويفقهون تشريعه ، وفي هذا تكريم للعلماء ، وإعلاء لأقدارهم حيث خصهم الله - عز وجل - بفهم شريعته ، وأسرار كتابه الكريم وهو القرآن العظيم .

وفى تكريمه وأفضلية العلم يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١١) وَإِنْ تَكْفُرُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَبِلُوا أَيِّمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَأَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُرُونَ ﴾ (١٢) [سورة التوبة: ١١: ١٢] والمعنى : أن الله - عز وجل - خص العلماء وهم أهل الفقه والفهم بآيات كثيرة في كتابه الحكيم مبيناً أن العلماء هم المقصودون بهذا الخطاب لأنهم أهل له ولفهم غايته والحكمة منه ، فقال تعالى يبين الحجج والأدلة لأهل العلم والفهم: " ... وَنَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ... "

وهذا البيان هو " فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة يعنى أعطوها فهم إخوانكم في الدين ، لهم ما لكم ، وعليهم ما عليكم .

وخص العلماء بفهم هذه الأمور ، وفقه تلك القضايا . وفي الآية الآتية ينبه الله تعالى على دلائل قدرته ، ووحدانته ، وهو بقدرته جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار كالسراج الوهاج ، كما جعل القمر منيراً بالليل ، وهذا من كمال رحمته بالعباد ، ولما كانت الشمس أعظم جرماً خضت بالضياء ، لأنه هو الذى له سطوع ولعان .

يقول " الطبى " :- " والمعنى : " أضاء الشمس ، وأنار القمر ، وقد سيره في منازل وهى " البروج " ذلك لتعلموا أيها الناس حساب الأوقات ، فبالشمس تعرف الأيام ويسير القمر تعرف الشهور والاعوام ، وما خلق الله ذلك عبثاً ، بل لحكمة عظيمة وفائدة جليلة ، وذلك ليبين الآيات الكونية ويوضحها لقوم يعلمون قدرة الله ويتدبرون حكمته .

ويقول " ابوالسعود " : يعنى "يعلمون الحكمة في إبداع الكائنات ، فيستدلون بذلك على شئونها مبعثها جل وعلا .

ويقول " صاحب اللطائف": أنوار العقول نجوم ، وهى للشياطين رجوم وللعلوم أقمار، وهى أنوار واستبصار ، وللمعارف شمس، ولها على أسرار العارفين طلوع كما قيل: -
 إن شمس النهار تغرب بالليل
 وشمس القلوب ليست تغيب
 وكما أن في السماء كوكبين ، شمساً ، وقمرأً أبداً بضياؤها ، والقمر في الزيادة والنقصان يستربحاه ، ثم يكمل حتى يصير بدراً ثم يعود جديداً .
 وكل ليلة يجد مزيداً ، فإذا صار بدراً تماماً ، ولم يجد أكثر من ليلة لكمالها مقاماً ، ثم يأخذون في النقصان إلى أن يخفى شخصه ، ويتم نقصه . كذلك من الناس من هو مترددين قبضه وبسطه ، وصحوه ومحوه ، وإيابه ، لا فناء فيستريح ، ولا بقاء له دوام صحيح .
 وقيل :

كلما قلت قد دنال قيدي كلبوني فأوتقوا المسمارا

ويقول " ابن كثير " فى معنى هذه الآية :- " يخبرنا تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه أنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء ، وجعل شعاع القمر نوراً ، هذا فن ، وهذا فن آخر ففاوت بينهما لئلا يشتبها . وجعل سلطان الشمس بالنهار و سلطان القمر بالليل وقدرة القمر منازل فأول ما يبدو صغيراً ، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره ، ثم يشروع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر كقوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ [سورة يس: ٣٩: ٤٠] وقوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [سورة الرحمن: ٥] وقوله في هذه الآية الكريمة : { وَقَدَرَهُ } أي القمر { مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْأَجْسَابِ } فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام . ﴿..... مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [سورة يونس: ٥] أي لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة .

كقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [سورة ص: ٢٧] وقال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة المؤمنون] ﴿ [سورة الأنعام: ١١٦: ١١٥] وقوله : ﴿ نَفْصِلُ الْآيَاتِ ﴾ [سورة الأنعام: ٥٥]

أي نبيين الحجج والأدلة ونوضح الآيات لقوم يعلمون، يعنى أهل العلم والإيمان (١) .
بعد أن حكى الله سبحانه أن الكفار أقسموا بالله جهد أيمانهم على إنكار البعث والقيامة، وتنادوا في الغى والضلالة ، ومن هذه حاله فليس بالعسير عليه أن يقدم على إيذاء المؤمنين بألوان من الإيذاء حتى يضطروهم إلى الهجرة عن الديار ، ومفارقة الأهل والأوطان ، ذكرهنا حكم تلك الهجرة ، وبين ما لهؤلاء المهاجرين من حسنات في الدنيا وأجر في الآخرة ، من جزاء أنهم فارقوا أوطانهم ، وصبروا وتوكلوا على الله .

وفي هذا ترغيب لغيرهم في الهجرة واحتمال كل أذى في سبيل الله احتساباً للأجر.
فعن قتادة- رضى الله عنه - قال : هؤلاء هم أصحاب محمد- ﷺ - ، ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم ، حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة ، ثم بوأهم الله المؤمنين ، فقال- سبحانه وتعالى :- ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنْوَتْهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۗ وَلَا جَزَاءَ لَآخِرَةٍ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ [سورة النحل: ٤١]

والمعنى: والذين فارقوا قومهم ودورهم ، وأوطانهم ، وذهبوا إلى بلاد أخرى احتساباً لأجر الله ونيلاً لمرضاته من بعد ما نالهم من الكفار من أذى في أنفسهم وأموالهم لنسكنهم في الدنيا مساكن حسنة يرضونها ، إذ هم لما تركوا مساكنهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله عوضهم الله خيراً منها في الدنيا ، فمكّن لهم في البلاد ، وحكمهم فى رقاب العباد ، وصاروا أمراء وحكاماً ، وكان من منهم للمتقين إماماً .

ثم ترى أن الله - سبحانه وتعالى - يخبر أن ثوابهم في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا فقال تعالى: ﴿..... وَلَا جَزَاءَ لَآخِرَةٍ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾
حيث إن ثوابهم في الآخرة " الجنة " التى لا يغنى نعيمها ، ولا يزول خيرها .

-
- 1- تفسير ابن كثير ، ج ٢ ، ص ٤٠٧ وأيضاً ج ٤ ، ص ٣٢٦ .
 - ◆ مجافى الأدب فى حدائق العرب ، للأب لويس شيخو عوض .
 - ◆ تفسير ابو السعود ج ٤ ، ص ٣١٠ .
 - ◆ البحر المحيط ج ٤ ، ص ٢٩٢ .
 - ◆ تفسير الطبرى ج ١١ ، ص ٨٦ .
 - ◆ صفوة التفاسير ج ١ ، ص ٤٤٤ .
 - ◆ مختصر تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ٢١٢ .
 - ◆ فى ظلال القرآن الكريم للامام الشهيد سيد قطب ج ٦ ، ص ٢٥١٢ بتصرف .
 - ◆ تفسير القرطبي ج ١٧ ، ص ٣٠٠ .
 - ◆ تفسير الالوسى ج ٢٨ ، ص ٣٠ .
 - ◆ لطائف الاشارات للامام القشيري ج ٢ ، ص ٧٩ - ٨٠ .

فيروى عن " عمر بن الخطاب " -رضى الله عنه- أنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءً يقول له : " خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما نذره لك في الآخرة أفضل ثم تلا هذه الآية " ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَمَرُوا لِنَفْسِهِمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة النحل: ٤١]

وهؤلاء هم الذين صبروا على ما نالهم من أذى قومهم ، ولم يرجعوا القهقري وعلى مفارقة الوطن المحبوب ، وعلى احتمال الغربة بين ناس لم تجمعهم بهم ألفة نسب ولا جوار في دار ، وقد فوضوا أمرهم إلى ربهم الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة ، وأعرضوا عن كل ما سواه .

ويقول " ابن كثير " : " يخبرنا تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيل ابتغاء مرضاته وهم الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان ، رجاء ثواب الله وجزائه . ويحتمل أن يكون سبب نزولها في مهاجري الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بركة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم ، ومن أشرافهم سيدنا " عثمان بن عفان " ومعه زوجة رقية بنت رسول الله - ﷺ - . وقد قيل فيهم أحسن شخصين رأى إنسان " رقية وبعلمها عثمان وجعفر بن ابي طالب عم الرسول - عليه الصلاة والسلام ، وأبوسلمة بن عبد الأسود -رضى الله عنهم أجمعين- في جماعة قريب من ثمانية ، ما بين رجل وأمرأة صديق وصديقة . فوعد الله - سبحانه وتعالى - بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال - سبحانه وتعالى - ﴿لِنُبَوِّئَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ [سورة النحل: ٤١]

يقول " ابن عباس -رضى الله عنهما - والشعبي وقتادة وهي " المدينة وقيل هو" الرزق الطيب " ولا منافاة بين القولين فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم ، فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا ، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه ، وكذلك وقع ، فقد مكن الله لهم في البلاد ، وحكمهم في رقاب العباد ، وصاروا أمراء وحكاما .

وكل منهم للمتقين إماماً ، وأخبرنا تعالى أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا ولأجر الآخرة أكبر مما أعطيناهم في الدنيا لو كانوا يعلمون ، يعنى لو كان المتخلفون عن الهجرة منهم يعلمون ما أدخر الله لمن أطاعه ، وأتبع رسوله - ﷺ - ثم وصفهم الله تعالى فقال " الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون " يعنى صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله - سبحانه وتعالى - الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة .

ونرى الله - عزوجل - يقول: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة النحل: ٤١]

وهنا يبين المولى - سبحانه - أفضلية العلماء ، فالعلماء يعرفون بلا ريب ربهم حق المعرفة ويؤمنون بما أعدّه الله من الأجر الجزيل ، والثواب العظيم لمن هاجر في سبيل الله ويعمل في الله ولله .

فهنا يبين - سبحانه وتعالى - أقدار العلماء ، وما وهبه الله لهم من علم ومعرفة وبصر بالأمر ، ولذلك قال تعالى " لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " فالعلم نور للبصيرة والبصر ، وبه يدرك المسلم أين يكون الخير وما الشيء الذي يصلح حاله في دنياه وأخراه .

ويقول " القرطبي " هم " صهيب " و " بلال " و " خباب " و " عمار " - رضى الله عنهم - والصواب والراجح أن المقصود بالآية جميع المهاجرين في سبيل الله تعالى (١) .

إن التعليم والتعلم روح الإسلام ، لا بقاء لجوهره ، ولا كفالة لمستقبله إلا بهما ، والناس في نظر الإسلام أحد رجلين : إما متعلم يطلب الرشد ، وإما عالم يطلب المزيد من العلم وليس بعد ذلك من يؤبه له .

وقال رسول الله - ﷺ - " العالم والمتعلم شريكان في الخير ، ولا خير في سائر الناس " (٢)

ويمضى القرآن الكريم في الحديث عن العلم فيقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَتَلَّكَ مِوْثِقَهُمْ خَاوِيَةً يُبَاطِلُوهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة النمل: ٥٢]

يعنى فتلك بيوتهم خاوية ، ومسكنهم خالية ودورهم خربة وذلك الخراب والدمار بسبب ظلمهم وكفرهم ، فلذلك أهلكهم الله - سبحانه وتعالى - ، وخرّب دورهم ومسكنهم إن في هذا الخراب والدمار لمساكنهم عبرة وعظة لقوم يعلمون قدرة خالقهم ، وتديبر ربهم فيتعظون بذلك ، ويقول " ابن كثير " - رحمه الله تعالى - " فَتَلَّكَ مِوْثِقَهُمْ خَاوِيَةً يُبَاطِلُوهَا " يعنى : فارغة ليس فيها أحد وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون . ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " في ظلاله : " ومن لمحة إلى لمحة إذا التدمير والهلاك ، وإذا الدور الخالية والبيوت الخالية ، وقبل كانوا منذ لحظة واحدة في الآية السابقة من السورة يدبرون ويمكرون ، ويحسبون أنهم قادرون على تحقيق ما يمكرون ، وهذه السرعة في عرض هذه الصفحة بعد هذه مقصودة في السياق ، لتظهر المباغته الحاسمة القاضية ، وهى

١ - تفسير القرطبي ، ج ١٠ ، ص ١٠٧ .

٢ تفسير ابن كثير ج ٢ ، ص ٥٧٠ .

٣ تفسير المراعى ج ٥ ، ص ٨٥ - ٨٦ .

٤ - رواية ابن ماجة .

مباغطة القدرة التي لا تغلب للمخدوعين بقوتهم ، ومباغطة التدبير الذي لا يخيب للماكرين المستنرين بمكرهم .

"إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" والعلم هو الذي عليه التركيز في السورة وتعقيباتها على القصص والأحداث ، وبعد مشهد المباغطة يجيء ذكر نجاة المؤمنين الذين يخافون الله ويتقونه . ﴿ وَنَحْنُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [سورة فُصِّلَتْ: ١٨] والذي يخاف الله يقيه- سبحانه وتعالى- من المخاوف فلا يجمع عليه خوفين كما جاء في الحديث القدسي (١) .

وبالنظر إلى المعنى : إن بيوتهم خربة بظلمهم ، ووقع منهم الظلم لجهلهم فلو كانوا يعلمون بعاقبتهم ما فكروا في الظلم ولكن الله أعمى أبصارهم ، وختم على قلوبهم ، فلم يفتنوا إلى ما يكون في صالحهم في الدنيا والآخرة ، إن هؤلاء اغتروا بأنفسهم ، وجبروتهم وأموالهم ، وسلطانهم ، ومناصبهم فظلموا فكان عقابهم أن خرب الله بيوتهم بظلمهم ، وجعلها خاوية على عروشها ، وأصبحوا عبرةً ، وعظةً لمن كان على علم ، وفقه ، وفطانه ، ولذلك كانوا آية للعلماء الذين يخشون ربهم بالغيب . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

ويبين الله- عز وجل- أيضاً قدر العلم ، وقيمة العلماء في فهم ما يكون سبباً في سعادتهم في الدنيا والآخرة فيقول معقباً على القصص القرآني الذي تمثلت فيه ألوان الفتن ، ومن الصعاب والعقبات في طريق الدعوة ففي قصة نوح- عليه السلام- تتمثل في ضخامة الجهد المبذول ، وضآلة الحصيصة حيث لبث في قومه- عليه السلام- ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ولم يؤمن به إلا القليل " فأخذهم الطوفان وهم ظالمون " .

وفي قصة سيدنا : ابراهيم - عليه السلام - يتبدى سوء الجزاء بالحجة والمنطق ، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا " أقتلوه أو أحرقوه " وفي قصة " لوط - عليه السلام- يتبدى تبجح الرزيلة وإعلانها جهاراً نهاراً ، وبدت واضحة كالشمس في رابعة النهار ، وسقورها بلا حرج ، ولا استحياء ، وأنحدار البشرية إلى الدرك الأسفل من الانحراف ، والشذوذ مع الاستهتار بالندير .

1- صفوة التفاسير للصابوني ج ٢ ، ص ٤١٣ .

□ زاد المسير .

□ البحر المحيط ج ٧ ، ص ٨٥ .

□ في ظلال القرآن الكريم للشيخ سيد قطب ج ٥ ، ص ٢٦٤٦ .

□ تفسير القرآن العظيم ابن كثير ج ٣ ، ص ٣٦٨ .

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّيْلَ وَتَأْتُونَ فِي تَارِدِكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة العنكبوت: ٢٩]

وفي قصة سيدنا " شعيب " - عليه السلام - مع مدين يتبدى الفساد والتمرد على الحق والعدل ، والتكذيب " فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين " وتذكر الإشارة إلى " عاد وثمود " بالاعتزاز بالقوة ، والبطر بالنعمة ، كما تذكر الإشارة إلى " قارون " و " فرعون " و " هامان " بطغيان المال ، واستبداد الحكم ، وتمرد النفاق ويغيب على هذا القصص بمثل يضربه لهو أن القوة المرصودة في طريق دعوة الله ، وهي مهما تمكنت ، واستطالت .

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) [سورة العنكبوت: ٤١]

ويقول " ابن كثير " : في هذه الآية " هذا مثل ضربه الله - سبحانه وتعالى - للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم ويتمسكون بهم في الشدائد ، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ، ووهنه فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت ، فإنه لا يجزى عنه شيئاً . فلو أنهم علموا بهذا الحال ، ما أخذوا من دون الله اولياء .

هذا بخلاف المسلم المؤمن من قلبه لله ، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباعه لشرع الله - عز وجل - والتمسك بسنة رسوله - ﷺ - . وفي ذلك التمسك يكون قد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها .

وذلك لقوتها ومتانتها ، وتماسكها ، وقوة نسيجها ، ثم قال - سبحانه وتعالى - متوعداً لمن عبدَ غيره ، وأشرك به ، إنه - سبحانه وتعالى - يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليم .

ثم - قال تعالى - ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣] . يعنى : وما يفهمها ، ويتدبرها الا الراسخون في العلم ، والمتذللون منه . وعن سيدنا " عمرو بن العاص " - رضى الله عنه - قال : عقلت عن رسول الله - ﷺ - .

" ألف مثل " وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعلمها إلا العالمون وعن " عمرو بن مرة " - رضى الله عنه - قال " ما مررت بآيه من كتاب الله لا أعرفها إلا أجزئني لأنى سمعت الله تعالى يقول : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣] .

فإن مثل الذين اتخذوا من دون الله أصناماً يعبدونها في اعتمادهم عليها ورجائهم نفعها كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتاً لا يغنى عنها في حر، ولا برد ولا مطر، ولا أذى .

يقول " القرطبي " -رحمه الله تعالى-؛ " هذا مثل ضربه الله - سبحانه وتعالى- لمن أتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره كما أن بيت العنكبوت لا يقبها حراً ولا برداً ، وإن أضعف البيوت لبيت العنكبوت ، لتفاهته وحقارته، لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم ما عبدوها . بل كانوا يفكرون تفكيراً سليماً ليعلموا أن هذه المعبودات لا تغنى عنهم من الله شيئاً ، ولفكروا فيما ينفعهم في الدنيا والآخرة ، ولو أن هؤلاء استغلوا نعمة العقل التي أنعمها الله عليهم واستغلوها في فهم الحقيقة لعبود الله- سبحانه وتعالى- ، ووجوده ، وما أشركوا به شيئاً ، فإن العقل نعمة كبيرة أنعم الله بها على الإنسان فالعلماء الذين يتدعون، وابتكرون ، ويخترعون السفن الفضائية والصواريخ العابرة للقارات ، والقنابل النووية والأسلحة الفتاكة ، والمخترعات العلمية الأخرى التي يعج بها العالم الآن وأصبحت ملء السمع والبصر .

إنهم علماء ويملكون عقولاً فذة ، وانهم لمحاسبون عليها في الدار الآخرة يوم الحساب والوقوف بين يدي الله - سبحانه وتعالى- لأنهم لو استغلوا هذه العقول صاحبة الابتكارات العلمية ، والمخترعات النووية لهدوا إلى الطيب من القول ، وهدوا إلى صراط العزيز الحميد ، وعرفوا أن لهذا الكون خالقاً هو: الله - سبحانه وتعالى - الذي خلقهم ، ومن العدم أوجدهم ، وللعلوم سخرهم وهداهم إلى العلم والاختراع .
فلوأنهم فكروا قليلاً بما منحه الله لهم من مواهب العلم والفكر لهدوا إلى أنه هو الله، وأن محمداً عبده ورسوله ومصطفاه .

ولذلك قال تعالى : ﴿.....لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.....﴾ [سورة سبأ: ١٤]، لكنهم لم يعلموا لأن على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة^(١) .

1- تفسير القرطبي ج ١٣ ، ص ٣٤٥ .

□ تفسير الطبري ج ٢٠ ، ص ٩٦ .

□ تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ٤١٣ - ٤١٤ .

□ في ظلال القرآن الكريم للإمام سيد قطب ج ٥ ، ص ٢٧٢٦ وما بعدها بتصرف .

□ مختصر تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ٣٧ .

وفي الآية القرآنية الآتية صورة مشرقة ، فالقنوت والطاعة ، والتوجه وهو ساجد قائم ، وهذه الحساسية المرهفة وهو يَحْذَرُ الآخرة ، ويرجو رحمة ربه وهذا الصفاء ، وتلك الشفافية التي تفتح البصيرة ، وتمنح القلب نعمة الرؤية والاتقاط والتلقى .

هذه كلها ترسم صورة مشرقة مضيئة من البشر ، مقابل تلك الصورة النكدة المطموسة التي رسمتها الآية السابقة على هذه الآية التي نحن بصدد شرحها وسير أنوارها ، وخبر أسرارها فلا جرم يعتقد هذه الموازنة .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِيئٌ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩١﴾ [سورة الزمر: ٩]. فالعلم الحق هو " المعرفة " وإدراك الحق ، وهو أيضا : تفتح البصيرة والاتصال بالحقائق الثابتة في هذا الوجود ، وليس العلم هو المعلومات المفردة المفردة التي تزحم الذهن ، ولا تؤدي إلى حقائق الكون الكبرى ، ولا تمتد وراء الظاهر المحسوس وهذا هو الطريق إلى العلم الحقيقي ، والمعرفة المستنيرة ، هذا هو القنوت لله وحساسية القلب ، واستشعار الحذر من الآخرة ، والتطلع إلى رحمة الله وفضله ، ومراقبة الله .

هذا هو الطريق ، ومن ثم يدرك اللب ويعرف ، وينتفع بما يرى ، وما يسمع وما يجرب ، وينتهي إلى الحقائق الكبرى الثابتة من وراء المشاهدات والتجارب الصغيرة ، فأما الذين يقفون عند حدود التجارب المفردة ، والمشاهدات الظاهرة ، فهم جامعومعلومات ، وليسوا بالعلماء . وهذا هو معنى قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ وإنما يعرف أصحاب القلوب الواعية المتفتحة المدركة لما وراء الظواهر من حقائق المنتفعة بما ترى وتعلم ، التي تذكر الله في كل شيء تراه وتلمسه ولا تنساه ، ولا تنسى يوم لقاها .

ويقول المفسرون في الآية لإستفهام حُذِفَ جوابه لدلالة الكلام عليه أى أم من هو مطيع عابد في ساعات الليل يتعبد ربه في صلاته ساجداً ، وقائماً كمن أشرك بالله ، وجعل له أندادا ؟ .

يقول " القرطبي " بين الله تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذي مضى ذكره حال كونه خائفاً من عذاب الآخرة .

راجياً رحمة ربه وهى الجنة ، هل يستوى هذا المؤمن التقى مع ذلك الكافر الفاجر ؟ لا يستوون عند الله ، ثم ضرب مثلا فقال سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ

وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ؟ " يعني : هل يستوى أويتساوى العالم والجاهل ؟ فكما لا يستوى هذان كذلك لا يستوى المطيع والعاصي ، إنما يعتبر ويذكر ويتعظ أصحاب العقول السليمة .
يقول الإمام " الفخر الرازي " : " واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة ، فأولها : أنه بدأ فيها بذكر العمل ، وختم فيها بذكر العلم ، أما العمل فهو " القنوت " ، و" السجود " و" القيام " وأما العلم ففي قوله - سبحانه وتعالى - : " قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ؟ " .

وهذا يدل على أن كمال الانسان محصور في هذين المقصودين فالعمل هو البداية والعلم والمكاشفة هي النهاية . وفي وفي الكلام حذف وتقديره .
أمن هو قانت كغيره؟ . وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه ، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية " الكافر " ثم مثل بالذين يعلمون ، وفيه تنبيه عظيم على فضيلة العلم . أجل إن العلم له أفضلية على كل شيء فليس العالم كالجاهل ، وليس من يعرف كمن لا يعرف وليس من يفتن ، كمن لا يفتن .

وليس من يفقه كمن لا يفقه فمما لا ريب فيه أن العلماء أفضل من الجهلاء وصدق الإمام " على بن ابي طالب -"رضى الله عنه- حين قال : " والجاهلون لأهل العلم أعداء . (١)

إن القرآن الكريم ، كتاب الله وبيانه ، ووحيه وتنزيله ، وهدهد وسبيله به قصم الله ظهر كل شيطان مريد ، أذل به كل جبار عنيد ، وهوالذي أحنى رأس " الوليد " ، وآلان قلب " عمر " ، هوالذي سمعته الجن فتتهف قائلة : ﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانَ عَجَبًا ۖ (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۗ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۚ (٢) وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدًّا رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صُحْبَةً وَلَا وَلَدًا ۚ (٣) ﴾ [سورة الجن: ١: ٣]

ربوا الشباب على الفضائل والتقوى لا تتركوه فريسة الشيطان

١ - تفسير ابو السعود ج ٤ ، ص ٢ - ٣ .

□ تفسير القرطبي ج ١٢ ، ص ٢٣٨ ، ص ٢٤٢ .

□ حاشية زادة على البيضاوى ج ٣ ، ص ١٩٤ .

□ التفسير الكبير ج ٢٦ ، ص ٢٥٠ .

□ التسهيل لعلم التنزيل ج ٣ ، ص ١٩٢ .

□ حاشية الصاوى ج ٣ ، ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

□ مختصر ابن كثير ج ٣ ، ص ٢١٥ .

□ في ظلال القرآن الكريم للامام سيد قطب ج ٥ ، ص ٣٠٤٢ بتصرف .

وخذوه بالقرآن يحفظ نفسه فالخير كل لاخير فى القرآن
 ويقول الله- عز وجل- فى تبيان فضل العلماء: ﴿ كَذَّبُ قُضِلَتْ ءَايَتُهُ، قُرْءَانَا عَرَبِيًّا
 لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة قُضِلَتْ: ٤: ٥]
 فهوالتفصيل المحكم، وفق الأعراض والأهداف، ووفق أنواع الطبائع والعقول،
 ووفق البيئات والعصور، ووفق الحالات النفسية، وحاجاتها المتنوعة. التفصيل المحكم
 وفق هذه الاعترابات سمة واضحة فى هذا الكتاب، وقد قُضِلَتْ هذه الآيات وفق تلك
 الاعترابت، فصلت قرآنا عربيا لقوم يعقلون، يعنى لديهم الاستعداد للعلم والمعرفة، والتميز.
 ويقول " ابن كثير" - رحمه الله- كتاب فصلت آياته يعنى بينت معانية
 وأحكمت أحكامه فى حال كونه قرآنا عربيا بينا واضحا. فمعانيه مفصله وألفاظه
 واضحة غير مشكلة كقوله تعالى: " كَذَّبُ قُضِلَتْ ءَايَتُهُ، قُرْءَانَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ". يعنى
 وهو معجز من حيث لفظه ومعناه .

قال تعالى: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾
 [سورة قُضِلَتْ: ٤٢] وقوله تعالى " لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ "
 يعنى إنما يعرف هذا البيان والوضوح " العلماء الراسخون فى العلم " وهو كتاب
 جامع للمصالح الدينية والدينية بينت معانيه، ووضحت أحكامه بطريق القصص
 والمواظ، والأحكام، والامثال فى غاية البيان والكمال، وفى حال كونه قرآنا عربيا غير ذى
 عوج اضحا جليا نزل بلسان العرب لقوم يفهمون تفاصيل آياته ودلائل اعجازه، فانه فى
 أعلى طبقات البلاغة، ولا تنبرق أسراره إلا لمن كان عالما بلغة العرب .

ويقول الامام " الفخر الرازى " : " والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج اليه المرضى
 من الأدوية، وعلى كل ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية، فكان أعظم نعمة عند الله
 تعالى على أهل هذا العالم، إنزال القرآن الكريم عليهم وسمى " كتابا " لأنه جمع فيه علوم
 الأولين والآخرين، وقد فرق آياته، وجعلت تفاصيل فى معان مختلفه فبعضها
 فى وصف ذات الله تعالى، وشرح صفات التنزيه والتقدیس، وشرح كمال علمه وقدرته
 ورحمته وحكمته، وعجائب أحوال خلقه :

السموات، والأرض، والكواكب، وتعاقب الليل والنهار، وعجائب أحوال النبات،
 والحيوان، والإنسان وبعضها فى أحوال التكاليف المتوجهة نحو القلوب، ونحو الجوارح
 وبعضها فى الوعد، والوعيد، والثواب والعقاب ودرجات أهل الجنة، ودرجات أهل النار،

ويعقبها في المواعظ والنصائح وبعضها في تهذيب الأخلاق ، ورياضة النفس ، وبعضها في قصص الأولين وتواريخ الماضين .

وبالجمله فمن أنصف علم أنه ليس في يد الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة ، والمباحث المتباينة مثل ما في القرآن الكريم .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة يوسف: ٢]

يعنى : نزل بلغة العرب ولسانهم ، ويؤكد هذا المعنى قوله - سبحانه وتعالى - :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة إبراهيم: ٤]

ويعنى باللسان اللغة والمعنى وما أرسلنا من رسول إلا بلغة قومه ، ليسهل عليه دعوتهم ، وشرح التوحيد لهم والتفاهم معهم بلسانهم ولغتهم ، وجعلناه قرآناً عربياً لأننا أنزلناه على قوم عرب ، فجعلناه بلغة العرب ليفهموا المراد منه وهو تنزيل من الله لأجلهم وكذلك فصلت آياته لأجلهم فالقرآن الكريم لا يفقهه ويعرف معانيه ، ويتدبر آياته إلا العلماء الذين بوسعهم فهم مراحجه ، وأهدافه وما يتغياها كتاب الله . (١)

ويبين الله - عز وجل - فضل العلماء ، وكرامتهم عند الله وعند الناس والذين يقدرون العلم ، ويحترمون ذويه ، فبين الله - عز وجل - فضل العلم على غيره فلا يستوى من يعلم من الناس ومن لا يعلم .

إن الذى أنزل إليك يا محمد من ربك وهو القرآن وهو الكتاب الحق الذى لا ريب فيه، ولا مرية ولا لبس ولا اختلاف فيه بل هو كله حق يصدق بعضه بعضا لا يضاد شيء منه شيئا آخر فأخباره كلها حق ، وأمره ونواهيه عدل يقول تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [سورة الأنعام: ١١٥]

يعنى صدقاً في الأخبار ، وعدلاً فى الطلب فلا يستوى من تحقق صدق ما جئت به يا محمد ، ومن هو أعمى لا يهتدى إلى الخير لا يفهمه ، ولوفهمه ما إنقاد له ولا صدقه ولا اتبعه .

1 - تفسير الرطبي ج ١٥ ، ٣٤١ .

□ البحر المحيط ج ٧ ، ص ٤٨١ .

□ صفوة التفاسير ج ٣ ، ص ١١٥ .

□ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٤ ، ص ٩٠ .

□ فى ظلال القرآن الكريم ، للامام سيد قطب ج ٥ ، ص ٣١٠٨ .

□ مفاتيح الغيب ج ١٣ ، ص ٥٩١ - ٥٩٢ .

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [سورة الحشر: ٢٠] ويقول الله تعالى هنا :- ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَنْذُرُ

أُولَئِكَ الْآلِئِينَ﴾ [سورة الرعد: ١٩]

أى أفهكذا كهذا ؟ لا يستوون ، إنما يتعظ بذلك ويعتبر ، ويعقل أولوا العقول السليمة ، الصحيحة ندعوا الله - عز وجل - أن يجعلنا منهم فلا يستوى من يعلم والذى لا يعلم أن الذى أنزله الله عليك هو الحق الذى لا ريب فيه والذى لا يعلم ذلك فهو أعمى عن الحق ، لا يهتدى إلى الخير يفهم ولو يسير له الفهم ما آمن ، وما اهتدى ، وما صدق ، وما اطاع فيظل مشهودها في ظلمات الجهل ، وغياهب الضلالة .

يقول " قتادة " - رضى الله عنه - هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله ، وعقلوه ، ووعوه ، وهؤلاء كمن هو أعمى عن الحق فلا يبصره ولا يعقله ، إنما يتذكر أولوا الألباب ، يعنى إنما يعتبر بهذه الأمثال ، ويتعظ بها ، ويسير أعوارها ويخبر أسرارها إلا أولوا العقول السليمة والأفكار الرجيحة .

ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " في معنى الآية : ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَنْذُرُ أُولَئِكَ الْآلِئِينَ﴾ [سورة الرعد: ١٩]

إن المقابل لمن يعلم أن أنزل إليك من ربك هو الحق ليس هو من يعلم هذا إنما المقابل هو الأعمى ، وهو أسلوب عجيب فى لمس القلوب ، وتجسيم الفروق . وهو الحق فى الوقت ذاته ، لا مبالغة فيه ولا زيادة ، ولا تحريف .

فالعمى وحده هو الذى ينشئ الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التى لا تختفى إلا على أعمى والناس إزاء هذه الحقيقة الكبيرة صنفان :

مبصرون فهم يعلمون ، وعمى فهم لا يعلمون ، والعمى عمى البصيرة وانطماس المدارك ، وأستغلاق القلوب ، وانطفاء قبس المعرفة فى الأرواح وانفصالها عن مصدر الاشعاع .

" إِنَّمَا يَنْذُرُ أُولَئِكَ الْآلِئِينَ " وهم الذين لهم عقول وقلوب مدركة تذكر بالحق فتتذكر ، وتتنبه إلى دلائله فتتفكر ، وهذه صفات أولى الألباب ، هؤلاء الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، وهو عهد مطلق يشمل كل عهد وميثاق مطلق ينتظم به كل ميثاق ، والعهد الأكبر هو عهد الإيمان ، والميثاق الأكبر هو الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان .

والاستفهام في قوله تعالى " أفمن يعلم " أستفهام أنكارى توبيخى يعنى هل يستوى من آمن وصدق بما نزل عليك يا محمد بمن بقى يتخبط في ظلمات الجهل السعدى

لا عقل له كالأعمى ، يقول " ابن عباس " - رضى الله عنهما - : " نزلت هذه الآية في " حمزة وأبى جهل " ، إنما يتعظ بآيات الله ، ويعتبر بها ذو العقول السليمة والألباب الراجحة ، والبصائر المستنيرة ، وهنا يُبيّن القرآن الكريم فضل العالم على غيره من الذين يتمتعون بالجهالة الجهلاء والأمية النكراء .

والعالم بصير بالأمر يملك حساً مرهفاً وقلباً واعياً ، ولساناً ذاكراً ، فلا يستوى بمن أعمى عن الهدى والذي يرتع في ظلمات الجهل والكفر. (١)

ومن الآيات القرآنية الكريمة التي تحت على العلم قول الحق - سبحانه وتعالى - ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ [سورة الكهف: ٦٥] والمعنى : وجد " الخضر " - عليه السلام - عند الصخرة التي فقد عندها الحوت وفي الحديث أن " موسى " وجد " الخضر " مسجى بثوبه مستلقيا على الأرض فقال له : " السلام عليك " ، فرفع رأسه وقال له : " وأنى بأردك السلام ؟ . والخضر ليس نبياً وإنما هو من عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين ، وقد أظهر الله على يديه هذه الكرامات والأمر الغيبية تعليماً للخلق " فضل العبودية " وقد وهبناه نعمة عظيمة ، وفضلاً كبيراً ، وهى الكرامات التي أظهرها الله على يديه .

وعلمناه من لدنا علماً خاصاً بنا لا يعلم الا بتوفيقنا وهو علم الغيوب قول العلماء : " هذا العلم الربانى ثمرة الاخلاص والتقوى ويسمى " العلم اللدنى " يورثه الله لمن أخلص العبودية له ، ولا ينال بالكسب والمشقة ، وإنما هو هبة الرحمن لمن خصه الله بالقرب ، والولاية ، والكرامة .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ۖ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۗ ﴾ [سورة الكهف: ٦٦: ٦٧]

والمعنى : " هل تأذن لى في مرافقتك لأقتبس من علمك ما يرشدنى في حياتى ؟ وهذه مخاطبة فيها ملاحظة ، وتواضع من نبي الله الكريم - ﷺ - وكذلك ينبغى أن يكون الإنسان مع من يريد أن يتعلم منه .

1 - تفسير المراغى ج ٥ ، ص ٩١-٩٢ .

□ تفسير ابن كثير ج ٥ ، ص ٥٠٩ .
 □ فى ظلال القرآن ج ٤ ، ص ٢٠٥٩ .
 □ الطبرى ج ١٣ ، ص ١٣٤ .
 □ صفوة التفاسير ج ٢ ، ص ٨٠ .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى -: ﴿فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: ١١٤] والمعنى جل الله - سبحانه وتعالى - وتقدس الملك الحق الذي قهر سلطانه كل جبار عما يصفه به المشركون من خلقه ، وإذا أقرأك جبريل القرآن فلا تعجل معه ، بل استمع إليه ، واصبر حتى يفرغ من تلاوته ، وحينئذ تقرأ أنت .
يقول " ابن عباس " - رضی الله عنهما - :

" كان - عليه السلام - يعاد " جبريل " فيقرأ قبل أن يفرغ " جبريل " من الوحي ، حرصاً على حفظ القرآن ، ومخافة النسيان ، فنهاه الله عن ذلك ، يقول " القرطبي " : وهذا مثل قوله تعالى: - " لا تحرك به لسانه لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه " والمعنى لا تتعجل بالقراءة يا محمد - ﷺ - قبل فراغ " جبريل " من قراءته فعلينا جمع القرآن في صدرك ، ثم علينا بيانه وتفسيره .
" وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا " .

يعنى سل الله - عز وجل - زيادة العلم النافع .
يقول " الطبري " أمره بمسألته من فوائد العلم ما لا يعلم . ويقول الحق - سبحانه وتعالى -: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٨٠] . والمعنى : علمنا " داود " - عليه السلام - صنع الدروع وكان ذلك بالإينة الحديد له يقول " قتادة " - رضی الله عنه - : " أول من صنع الدروع " داود " - عليه السلام - وكانت صفائح ، فهو أول من سردها وجعلتها لتقيكم في القتال شر الأعداء ، ثم قال تعالى ﴿... فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [٨٠] وهو استفهام يراد به " الأمر " يعنى أشكروا الله على ما انعم به عليكم .

يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَبِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٥٩] والمعنى : إن هذا الإله العظيم الذى ينبغى أن تتوكل عليه هو القادر على كل شيء فهو الذى خلق السماوات السبع والأرضيين السبع . خلق السماوات السبع في ارتفاعها واتساعها ، والأرضيين السبع في كثافتها وأمتدادها في ستة أيام من أيام الدنيا .
يقول " ابن جبير " : " الله قادر على أن يخلقها في لحظة ، ولكن علم خلقه الرفعه والتثبيت ثم استوى على العرش استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تعطيل ، وهو الرحمن ذو الجود والإحسان فسأل عنه من هو خبير عارف بجلاله ورحمته .

وقيل المراد : فاسأل الله الخبير بالأشياء ، العالم بحقائقها يطلعك على جليّة الأمر والقول الأول أظهر وأصح ، والثاني مروى عن " مجاهد " - رضى الله عنه - ، وفي الآية آنفة الذكر وإن لم يذكر لفظ " العلم " صراحةً ولكن القارئ يفهمها ضمناً ومن فحوالكلام ، حيث يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿...فَسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥١﴾ ولا يكن أن يكون خبيراً إلا إذا كان عالماً بالأموال ويواطنها ، عارفاً بالأسرار مطلعاً على الحقائق ، ولا يكون خبيراً إلا إذا كان عالماً عارفاً فهنا ذكر العلم بطريقة الخبرة ، فالخبرة علم .

ويمضى القرآن الكريم في الحديث عن العلم مبيناً قيمته ، وفضله وأهميته ، ونفعه ، وخيره للناس أجمعين فيقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ آلا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة النمل : ١٥ : ١٦] يخبر المولى - عز وجل - عما أنعم به على عبده وبنيه " داود " وابنه " سليمان " - عليهما السلام - من النعم الجزيلة ، والمواهب الجليلة ، والصفات الجميلة ، وما جمع بهما بين سعادة الدنيا والآخرة ، والملك والتمكين التام في الدنيا ، والنبوة والرسالة في الذين ولهذا يقول المولى - سبحانه وتعالى - : " وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ آلا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ " .

ويروى أن " عمر بن عبد العزيز " كتب فقال : " إن الله لم ينعم على عبد نعمة فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمه ، ولو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل ، قال الله تعالى : " وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ آلا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ " .

فأى نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان - عليهما السلام - وورث " سليمان " " داود " في الملك والنبوة . وليس المراد به وراثته المال لم يخص " سليمان " وحده من بين سائر أولاد " داود " فإنه قد كان " لداود " مائة امرأة ولكن المراد بذلك وراثته الملك والنبوة ، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم ، كما أخبر بذلك رسول الله - ﷺ - في قوله : " نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة " ، وقد أخبر " سليمان " بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام ، والتمكين العظيم حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير ، وكان يعرف لفظة الطير والحيوان .

وهذا شيء لم يعطه لأحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به ورسوله - ﷺ - ومن زعم من الجهلة الرعاع أن الحيوانات كانت تنطق مثل بنى آدم قبل " سليمان ابن

داود " فهو قول بلا علم ، وجهالة جهلاء ، ولو كان الامر كذلك لم يكن لتخصيص " سليمان " - عليه السلام - بذلك فائدة اذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ويعرف ما تقول ، وليس الأمر كما زعموا ، ولا كما قالوا بل لم تنزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا على هذا الشكل والمنوال ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - كان أفهم " سليمان " - عليه السلام - ما يخاطب به الطيور في الهواء ، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف اصنافها ، ولهذا قال تعالى : ﴿.....عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.....﴾ [سورة النمل: ١٦]

يعنى مما يحتاج إليه الملك إن هذا هو الفضل المدين ، يعنى الظاهر البين علينا . عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : " كان داود - عليه السلام - فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع ، قال ، فخرج ذات يوم وأغلقت الأبواب فأقبلت امرأة تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار .

فقال لمن في البيت : من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة ؟
والله لنفتضحن بداود فجاء داود - عليه السلام - فإذا الرجل قائم وسط الدار ، فقال له داود : من انت ؟

فقال : الذى لا يهاب الملوك ، ولا يمتنع من الحجاب ، فقال داود - عليه السلام - أنت إذاً والله ملك الموت . مرحباً بأمر الله فتزمت داود مكانه حتى قبضت نفسه ، وحتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس .

فقال " سليمان " - عليه السلام - للطير : " أظلى " داود " فظللت عليه الطير حتى أظلمت عليه الأرض ، فقال لها " سليمان " - عليه السلام - اقبضى جناحاً جناحاً ، يقول " ابو هريرة " - رضى الله عنه - يا رسول الله ، كيف فعلت الطير ؟ فقبض رسول الله - ﷺ - يده وغلبت عليه يومئذ المضحية وهى النسور الحمراء .

وفي مجال العلم والتعليم ، والتعلم يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة القصص: ١٣] ولما بلغ أشده وأستوىء آئنته حكماً وعلماً وكذلك تجزى المحسنين ﴿ [سورة القصص: ١٣] والمعنى : فرددناه إلى أمه كى تقر عينها به ، ولا تحزن عليه ، ولتعلم أن الله وعدها وعد الحق من رده إليها وأن جعله من المرسلين . فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين ، فعاملته في تربيته ما ينبغى له طبعاً وشرعاً ولكن أكثرهم لا يعلمون

حكم الله في أفعاله، وعواقبها المحمودة، التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كriebها إلى النفوس وعاقبته محموده في نفس الأمر وذلك لقوله تعالى: ﴿...وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢١٦] وقال تعالى: ﴿...فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: ١٩]

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة يوسف: ٢٢]

يقول "مجاهد" -رضى الله عنه- يعنى النبوة .

ومعنى قوله "حكما" يعنى حكمة مثله قول رسول الله - ﷺ -: " إن من الشعر لحكما".

والمعنى إن من الشعر لحكمة، والحكمة في الأدب العربى تعج بها مصادر الأدب فاطلبدها في مظانها الرئيسية .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى -: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يُحِجُّكُمْ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٩]

يعنى : هودلائل واضحة في صدور الذين وهبهم الله العلم، لا لبس فيها ولا غموض ولا شبهة فيها ولا ارتياب . دلائل يجدونها بينة في صدورهم تطمئن اليها قلوبهم، فلا تطلب عليها دليلاً وهى الدليل والعلم الذى يستحق هذا الاسم تجده في الصدور في قراراتها مستقراً فيها، منبعثاً منها، يكشف لها الطريق ويصلها بالخيوط الواصل إلى هناك، وما يجحد آياتنا الا الظالمون، لا يعدلون في تقدير الحقائق، وتقويم الأمور، والذين يتجاوزون الحق والصراط المستقيم .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى -: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوَبْئِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الروم: ٢٢]

والمعنى : ومن آياته خلق السماوات والأرض، واختلاف لغاتكم، وذلك بأن علم كل صنف لغة، وألهم وضعها، وأقدر عليها، وقيل إن المراد اختلاف أجناسكم، نطفكم وأشكالكم، فإنه لا تكاد تسمع منطقتين متساويين في الكيفية وكذلك الاختلاف في بياض الجلد وسواده، أو تخطيطات الأعضاء وهيئاتها وألوانها، وحلاها، بحيث يقع التمايز والتعارف حتى إن التوأمين مع اتفاق موادهما، وأسبابهما، والأمورا الملاقية لهما في التخليق يختلفان في شيء من ذلك لا محاله، إن في ذلك آيات للعالمين، لا تكاد تخفى

على عاقل من ملك أو إنس ، أوجن ويؤيد ذلك قول الحق - سبحانه وتعالى - ﴿... وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣] ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " :

" ومع آية السماوات والأرض عجيبه اختلاف الألسنة والألوان بين بنى الإنسان ولا بد أنها ذات علاقة بخلق السماوات والأرض . فأختلاف الأجواء على سطح الأرض واختلاف البيئات ذلك الاختلاف الناشئ من طبيعة وضع الأرض الفلكي ، ذو علاقة باختلاف الألسنة والألوان مع اتحاد الأكل والنشأة في بنى الإنسان ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون : ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.....﴾ [سورة الروم: ٧]

وآية خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان لا يراها ولا يفطن إليها ، ولا يعقلها الا الذين يعلمون ، ولذلك يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿..... فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [سورة الروم: ٢٢] ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم: ٥٦]

والمعنى : وأولوا العلم هؤلاء هم فى الغالب المؤمنون الذين آمنوا بالساعة وأدركوا ما وراء ظاهر الحياة الدنيا ، فهم أهل العلم الصحيح ، وأهل الإيمان البصير وهم يردون الأمر هنا إلى تقدير الله وعلمه " لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ " ، فهذا هو الأجل المقدر ، ولا يهيم طويلاً كان ام قصيراً ، فقد كان ذلك هو الموعد وقد تحقق " فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون " .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ . وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ [سورة ص: ٢٠]

والمراد أنه تعالى شدد ملكه بما يقوى الدين ، وأسباب سعادة الآخرة والمراد تشديد ملكه في الدين والدنيا ، ومن لا يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك ؟ وآتيناه الحكمة وهى اسم جامع لكل ما ينبغى علماً وعملاً . فكان ملكه قوياً عزيزاً وكان يسوسه بالحكمة والحزم جميعاً .

" وَفَصَّلَ الْخِطَابِ " هو قطعه والحزم فيه برأى لا تردد فيه ، وذلك مع الحكمة والقوة وهى غاية الكمال في الحكم والسلطان في عالم الإنسان ، ومع ذلك هذا كله فقد تعرض " داود " - عليه السلام - للفتنه والابتلاء ، وكانت عين الله عليه تكلاه وترعاه ،

وتثبت خطاه ، وكانت يد الله معه تكشف له ضعفه وخطأه ، وتوقيه خطر الطريق ، وتعلمه كيف يتوقاه .

ويقول الحق- سبحانه وتعالى - : ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَثَلَكُمْ ﴾ [سورة محمد: ١٩] وهو التوجيه إلى تذكر الحقيقة الأولى التي يقوم عليها أمر النبي - ﷺ - ومن معه . " فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " وعلى أساس العلم بهذه الحقيقة واستحضارها في الضمير تبدأ التوجيهات الأخرى . " وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ " .
علما بأنه مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

ولكن هذا واجب العبد المؤمن الشاعر، الإحساس الذي يشعر أبدا بتقصيره مهما كان جهد ، ويشعر وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، الاستغفار ذكرٌ وشكرٌ على الغفران ، ثم هو اليقين المستمر لمن خلف رسول الله - ﷺ - ممن يعرفون منزلته عند ربه ويرونه يوجه إلى الذكر والاستغفار لنفسه قم للمؤمنين والمؤمنات ، وهو المستجاب الدعوة عند ربه .

فيشعرون بنعمة الله عليهم وهو يوجههم لأن يستغفروا لهم ليغفر لهم .
ويقول تعالى وهي المسة الأخيرة في الآية " وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَثَلَكُمْ " حيث إن القلب المؤمن يشعر بالطمأنينة والحقوق معا ، الطمأنينة وهو في رعاية الله حينما تقلب أو توى ، والخوف من هذا الموقف الذي يحيط به علم الله ويتعقبه في كل حالاته ، ويطلع على سره ونجواه ، إنها التربية ، على اليقظة الدائمة ، والحساسية المرهفة ، والتطلع والحدز ، والانتظار .

ويقول الله - عز وجل - في العلم وأهله :-

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [سورة الجمعة: ٢]
فالأُمِّيُّون هم العرب ، كما قال - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلْتُمْ فَأَنْ أَسَلْتُمْ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [سورة آل عمران: ٢٠]
وتخصيص الأميين بالذكر لا ينبغي من عداهم ، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر، كما قال - عز وجل - في قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [سورة الزخرف: ٤٤]

هو ذكّر لغيرهم يتذكرون به ، ومثل قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [سورة الشعراء: ٢١٤] وهذا وأمثاله لا يتنافى مع قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَمَنُّوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٨] وقوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنِكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَتَسْهَدُونَ أَرَأَيْتَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ قُلِ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٩] وقوله - عز وجل - : ﴿ أَمْ مَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَبِتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة هود: ١٧]

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته - ﷺ - إلى جميع الخلق أحمرهم ، وأسودهم ، وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله " سيدنا ابراهيم " - عليه السلام - حين دعا لأهل مكة " أن يبعث الله فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فبعثه الله - سبحانه وتعالى - على حين فترة من الرسل ، وقد اشتدت الحاجة إليه ، وقد مقت الله أهل الأرض عربهم ، وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، أى قدراً يسيراً مما بعث الله به " عيسى بن مريم " - عليه السلام - ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [سورة الجمعة: ٢] وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين " ابراهيم " الخليل - عليه السلام - فبدلوه وغيروه ، وقلبوهم وخالفوه ، واستبلوا بالتوحيد شركاً ، وباليقين شكاً ، وابتدعوا أشياء لم يأت بها الله .

وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها ، وغيروها ، وألوهها فبعث الله محمداً - ﷺ - بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق ، فيه هدايتهم ، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ، ومعادهم ، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ، وأورضى الله عنهم ، والنهى عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى ، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع ، وجمع له تعالى جميع المحاسن ممن كان قبله وأعطاه ما يعطى أحداً من الأولين ، ولا يعطيه أحداً من الآخرين - فصلوات الله وسلامه عليه - إلى يوم الدين .

ويقول - سبحانه وتعالى - ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [سورة القلم: ١] وفي هذه الآية الكريمة يقسم الله - سبحانه وتعالى - " بنون " و " القلم " وبالكتابة والعلاقة واضحة بين الحرف " نون " بوصفه أحد حروف الأبجدية وبين القلم ، والكتابة .

فأما القسم بها فهو تعظيم لقيمتها أو توجيه إليها في وسط الأمة التي لم تكن تتجه إلى التعلم عن هذا الطريق وكانت الكتابه فيها مختلفة ونادرة في الوقت الذي كان دورها المقدر لها في علم الله يتطلب نمو هذه المقدرة فيها وانتشارها بينها ، لتقوم بنقل هذه العقيدة وما يقوم عليها من مناهج الحياة إلى أرجاء الأرض . ثم لتنهض بقيادة البشرية قيادة راشدة . وما من شك في أن الكتابة عنصر أساسي في النهوض بهذه المهمة الكبرى .

ومما يؤكد هذا المفهوم أن يبدأ الوحي بقوله - سبحانه وتعالى - ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [سورة العلق: ١ : ٥]

وهذا خطاب موجه للنبي - ﷺ - الأمي الذي قدر الله أن يكون أمياً لحكمة يعلمها الله تعالى ، وربما نعلمها نحن فشاء الله أن يكون أمياً حتى لا يقال إنه استقى هذا المنهج وقبسه من فكر أبيه ، أو فكر أمه ، أو هو فكر من ثقافة قوم آخرين ، لذلك يقول النبي - ﷺ - : " أدبني ربي فأحسن تأديبي ، بيد أني من قريش وربيت في بني سعد " . وقد بدأ الوحي إليه منزهاً بالقراءة والتعليم والتعلم ، ثم أكد هذه اللقطة في الآية الكريمة والتي نحن بصدد شرحها .

أكد ذلك بالقسم " بنون " و " القلم " وما يسطرون .

وكان هذا حلقة من المنهج الإلهي لتربية هذه الأمة ، وإعدادها للقيام بالدور الكوني الضخم الذي قدره لها في علمه المكنون . يقسم الله - عز وجل - بنون والقلم وما يسطرون منوهاً بقيمة الكتابة معظماً لشأنها ، كما أوامناً إلى ذلك أنفاً لينفي عن النبي - ﷺ - تلك الفرية ، والأكاذبية التي رماها بها المشركون ، مستعداً لها ونعمته على رسوله ترفضها ، " ما أنت بنعمة ربك بمجنون " .

ويقول الله - عز وجل - : ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦﴾ [سورة التكاثر: ٦ : ٢]

والمعنى : ارتدعوا انزجروا فلو علمتم العلم الحقيقي الذي لا ريب فيه ولا اهداء ، ولا شك لو أنكم عرفتم ذلك لما ألهاكم التكاثر بالدنيا عن طاعة الله - عز وجل - ولما خدعتم

بنعيم الدنيا عن أهوال الآخرة، وشداؤها، يقول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا " .

وهو جزء من حديث رواه البخارى وهو: " إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنْطَظَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ لَضَحَكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشَاتِ وَلَخَرَجْتُمْ عَلَى - أَوْ إِلَى - الصُّعْدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ " ويقول صاحب التسهيل :

" وجواب " لو " محذوف والتقدير " لو تعلمون لازدجرتم ، واستعددتم للآخرة ، وإنما حذف لقصد التهويل فيقدر السامع أعظم ما يخطر بباله مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ تُؤْفَكُوا عَلَى النَّارِ فَمَا لَوْ يَلَيْسْنَا نَرُّهُ وَلَا تُكْذِبُ رِيبًا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الأنعام: ٢٧] هذا هو العلم الذى مَجَّدَهُ اللهُ - عز وجل - فى كتابه الكريم الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، كما ذكر لأقدار العلماء فدينا فضلهم على سائر العباد ، وأذهم قوة عظيمة ضد الشيطان وذلك بسلطان علمهم ، وغزير معارفهم فإن عالما واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، وهى فى الوقت نفسه دعوة إلى التعليم ، ونشر العلم ، وطلب العلا والمعارف ، وصدق الشاعر، إذ يقول :

بالعلم والمال يبني الناس ملكهم
لم بين ملك على جهل وإقلال
ويقول أيضا :

والمال إن تدخره محصنا
بالعلم كان مطية الاخفاق (١)

1- صفوة التفاسير ج ٢ ، ص ١٩٨ ، ج ٣ ص ٥٩٨ .

■ تفسير الطبرى ، ج ١٦ ، ص ٢٢٠ ، ج ١١ ، ص ٤٢٠ .

■ القرطبي ج ١١ ، ص ٢٥٠ .

■ حاشية الصاوى على الجلالين ج ٣ ، ص ٦٦

■ مختصر تفسير ابن كثير ج ٢ ، ص ٤٩٦ ، ص ٥١٦

■ حاشية الشهاب على البيضاوى ج ٧ ، ص ١١٧

■ تفسير القرآن العظيم لأبن كثير ج ٣ ، ص ٣٥٨ ، ص ٣٨٢ ، ج ٤ ، ص ٣٦٣

■ فى ظلال القرآن الكريم ج ٥ ، ص ٢٧٦٤ وأيضاً ص ٢٧٧٧ ، ص ٣٠١٧ ، ج ٦ ص ٣٦٥٤

■ مفاتيح الغيب ج ١٣ و ص ٣٠٢ .